# في هِضاب الريف

الليلة قارسة ممطرة وتيارات الاعصار تتجاوب فـي صفير مصم وقطرات الطل الثقيلة لا تكاد تنبثق عن اكوام السحاب المتلبد حتى تتقاذفها الرياح فتمر في الفضاء كالسوط ينفح الوجوه زمهريرا .!

وكان الليل قد مال الى الانتصاف فلف في سرباله الحالك هذا المنبسط الشاسع من ارض الريف ! ولم تكد تهدأ الزوبعة الجارفة حتى ساد سكون رهيب وتراءت مـن خلال الظلمة اشباح سامقة تتحرك ذات اليمين وذات الشمال في تمايل مخيف ! ولولا انين متقطع لظننت نفسك في صحراء قاحلة تتسامق في جوانبها ادواح النخيل..! وقد بدأت نبرات هذا الانين تتضح كما بدا الفضاء يشع من جراء الانعكاسات الباهتة التي كانت تتخلل الضباب لتتساقط فـوق المنبسط المتلألىء بغدران الماء ! وتذبذبت هذه الاشعاعات رويدا رويدا فاذا هضاب مرتفعة تتراءى من بعيد وكأن القطرات التـي تجلل أدواحها اسراب من النجوم تتساقط لماعة فوق الاديـم المبلل !.. وازداد السكون فعم هذا البسيط القفر الذي كان في تلألئه الصامت اشبه بعرين لمردة الجان !.. تردد وقـع حوافر مشوب بأنات متقطعة تصاعد من الاعماق كأنها انات وجيع يتضور من الالم .. ثم تقارب ترجيع الانين فتخايلت وسط الظلام اطياف تتحرك في بطء نحو سفوح الهضاب ! وما هي الا لحظات حتى ظهر ضياء متلعثم من خلال مغارة واطئة نحتت في هضبة هي أشبه بكهف قد التصق مدخله بسطـح الارض فتوارى عن اعين الرقباء ! ولو قدر لك ان تدنو منه

لشاهدت بضعة من الافراس قد انبطحت على الارض من الاعياء وبازائها اكوام قد ربطت بعضها الى بعض بحبال ، وكان ثلاثة من الاشخاص مجلببين الى ركابهم يذهبون ويجيئون في حركة عصبية كأنهم يبحثون عن شيء ضاع بين الاقتاب وما ان عثروا على صندوق صغير حتى التفوا حول شخص رابع قد مدد على لفافة من الخيش وكان صدره المتفتح الازرار يتحرك في صعود وهبوط لولاهما لحسب جثة هامدة !.. مال احد الرفاق وكان شيخا اشيب نحو الشبح الصريع بآلة اشبه بملقط دقيق فتلوى هذا في انين وفتح عينين قد ذبلتا من الالم ولكن تشعان بوميض العزيمة والذكاء .! وكان شابا وسيم الطلعة قد بهت لونه من النزيف ! على ان جروحه قد تجمدت تحت قوارص العاصفة ولولا ذلك لسالت من جسمه المهزول آخر قطرة من الدم ! ثم ما لبث الشاب ان انتفض انتفاضة المقرور واغمي عليه عندما انتزع الشيخ من كتفه قطعة دقيقة سوداء حشى غورها في الجسم بضمادة من القطن ...!

وبينما الشيخ يرعى رفيقه الجريح كان الشابان الآخران يتجهزان لاستئناف السير غير أن احدهما توقف فجاة وانبطح على الارض ملصقا اذنه بأديمها بينما نفخ الثاني في القنديل فاطفاه ..! ولكن الشيخ طفق يتحسس الجروح في الظلام وينظفها حتى انكفأ عليه رفيقاه يسران في اذنه شيئا فهب واحتمل الشاب الجريح بين ذراعيه ووضعه في رفق واناة على خشبة مدت بين مخلاتي الفرس ثم همز مطيته مستحثا السير في عقبة كاداء تخرق الجبال الى قنته ومن ورائه رفيقاه وقد تحققوا قرب العدو .. وكان فوج من الفرسان قد وصل الى الساحة التي كانت الزوبعة تتقارع في اركانها منذ ساعة ..! وتوقف المغيرون مليا كانهم

يتحسسون الطريق فلم يفاجئهم الا ركام من الحجارة ينحدر في صخب من الجبل وكان اثنان منهم يتأججان مغامرة فتوغلا في المسرب الجبلي، ولكن الرفيقين الريفيين اللذين كانا يريان وهما في مأمن من عيون العدو تلقيا الفارس الاول بطلقة نارية تدحرج لها فرسه فسقط وقد اصيب بجروح عقلت مفاصله، بينما واصل الفارس الثاني طريقه غير عابىء بالطلقات التي كان الريفيان يرسلانها في غير هدى لتكاثف الظلام ومضت ثوان يخالها المرء ساعات لهول الموقف لم تكن تسمع خلالها الا نقرات الحوافر وانحدار الحجارة من جوانب الهضبة تتخللها طلقات نارية متقطعة .. ثم ساد السكون لحظة حتى ليحسب المرء ان صخب ذلك الصراع كان وحي خيال لو لم تخرق هذا السكون صرخة دوت مفجعة في جوف الليل ..

*

بقي الفرسان الاسبان جامدين في مكانهم على اثر الصرخة التي طرقت اسماعهم في جوف الليل وكانت الحلوكة لا تزال مدلهمة لان القمر لم يبزغ سوى فترة عابرة ، ثم ما لبثت اكوام الضباب المتحركة في الفضاء ان اقامت بينه وبين الارض سجفا صفيقة من الغيم ... ولم يقف الفرسان الاسبان جبنا ولكنهم توقفوا حيرة لان المغامرة خلال الظلام عبث وجنون لا سيما وان خصمهم يعرف مغابن الارض واعكانها ويستغل ما في الجبل من مخابع لنصب الفخاخ والاحابيل ... وكان «الروافة» الثلاثة قد الفوا كتيبة تحت امرة الشيخ المتحمس

فطافوا على معسكر الاسبان غب الشفق واختلسوا ما عثروا عليه في اطرافه من بنادق ورشاشات ... ولكن الحظ لم يؤاتهم الى النهاية فان اصغرهم وهو الفتى ادريس ضغط ـ وهو لا يشعر ـ على زر احدى البندقيات عندما كان يحزمها فوق حصانه فانطلقت رصاصة لم تكد تصيب احد الحواجز حتى انكفأت احدى شظاياها عائدة نحو مصدرها لتنحبس في كتف الفتى الذي كاد ينزف لولا قوارس الاعصار .! وبرح بالفتى الم ممض ولكنه تمالك وخف رغم ما بدا يشعر به من ضعف نحو فرسه فامتطاه واطلق له العنان .. وطفق الحصان يجري جامحا وهو لا يلوي على شيء اثر الطلقة المفاجئة التي حركت مخاوفه ! ولم يكد حراس المعسكر يسمعون اصداء الرصاص حتى هبوا من مكامنهم وانتشروا نحو الجهات التي تردد فيها الصوت يتحسسون ما وقع وكانوا قد حسبوا لاول وهلة ان احد زملائهم شاهد شبحا مريبا فاقصده ولكن وقع الحوافر ما لبث ان طرق اسماعهم فازدادوا ريبة ... وكان الفرسان الريفيون قد هرعوا نحو خميلة مجاورة لتضليل المطاردين بين ثناياها وساعدهم الظلام وهبوب الرياح التي كان صفيرها يغطي احيانا نقرات الحوافر .. ولم تكن الافراس لتخب السير حيث ثقلت صهواتها بالسلاح المسلوب ولكن مشابك الأجمة وانهمار المطر زادت المتعقبين ارتباكا وحيرة ومع ذلك طفقوا يغالبون التيار والوحل يحدوهم دافع الانتقام من هذه الكتائب التي تغامر بحياتها وهي عزلاء من السلاح لتنهب من معسكرهم اعتدة تجهز بها جيش الريف ! وكان الاسبان يعلمون ان هذا الجيش اعزل الا من ايمان يتأجج وعزيمة تقد الصخر ! فخافوا ان يضيف الجيش الى معنويته الفولاذية اعتدة من حديد ونار ! وقد قاست معسكرات الاسبان الامرين خلال الشهور الاخيرة من هؤلاء الفدائيين الذين يتطوعون لنهب المخيمات وزادهم هلعا ما كان الجند

يتهامسون به من آيات بطولتهم ومظاهر تحدياتهم ..! ولكن وجد ايضا من بين الاسبان من كانت النخوة لا تزال تجري في عروقه ومن كان يفضل الموت على الاستمرار في تحمل هذه التحديات ! لذلك هب فوج من الاسبان لمقارعة الفداء بالفداء! ولكن اذا كانت لم تزل في معنوياتهم فضلة استبسال فان الفدائيين من الاهالي قد دعم بطولتهم ما كانوا يشعرون به من احقية هذا الصراع الذي يخوضونه للدفاع عن مقدسات امتهنها المغيرون .. وكانوا الى هذا قد يئسوا من حياة بدا يمازجها الدون ..! فاما الموت عن شرف واما الحياة عن شرف! .. بينما كان فدائيو الاسبان يحسون بما ينطوي عليه كفاحهم من اثرة وانانية فكانت طفراتهم تؤول الى الانحلال لولا امداد موصولة من الماديات !!

... ومع ذلك فان روح الانتقام قد تكيف النفس وتبعث في صاحبها الحماسة ولو للباطل .. وهكذا بات المطاردون يواصلون السرى في اعقاب الخصوم الى ان انتصف الليل فداهموهم في سفح الجبل ولكن بنادق الاسبان التي اختلسها شبان الريف صرعت الفارس الاسباني الاول فدحرجته من فرسه الى حضيض السفح .. ولم يفطن الفارس الثاني للشيخ رئيس الفدائيين الذي انقض عليه وهو على فرسه ودحرجه بعنف بين الصخور فصاح تلك الصيحة التي دوت في جوف الليل ثم عاد الشيخ الى جريحه ليواصل السرى بجانب رفيقيه المغوارين .. وكان الثلاثة يسيرون وسبط الظلام متحسسين الارض بخطوات ثابتة لاستئناسهم بالطريق وزادهم حماسة مصير خصومهم واشرافهم على محلتهم التي كانت تعج بالمتطوعين من الجنسين .. وما كادوا يصلون الى المعسكر حتى كان الفجر قد انبلج فهب الجيش لصلاة الصبح والانصات الى مواعظ « الفقيه صاحب اللحية » تلك المواعظ

التي كانت كاتون تستعر فيها مهج المؤمنين فتتصلب وتقوى استعدادا للمعركة الكبرى !.

ولم يكد الرفاق الثلاثة يصلون الى المعسكر الريفي حتى تراءى لهم في غبش الصبح طيف يتسلل باحتراس آتيا من الناحية التي يتقصدونها وكان هذا الشبح يهرول بخطى حثيثة ويجول بنظره في الافق كأنه خشي ان ينبثق الصبح وهو لا يزال في مسراه بعيدا عن الهدف .. وقد احس الشبح باقتراب الكتيبة العائدة من جولتها الليلية وكان يعلم بمهمتها .. وكان الظلام يخفي معالم فتاة رشيقة هيفاء لم تكد تطرق مسمعها المرهف نبرات الانين حتى احمرت وجنتاها وتسارعت نبضات قلبها وسرت في جسمها قشعريرة تسايلت لها أخاديد العرق رغم قوارص الغلس .. وتوقفت الفتاة لحظة ولكنها ضغطت على عواطفها وتابعت طريقها مسرعة وهي لا تلوي على شيء !!

*

## في مخيم البطل

كان الخباء منصوبا في العراء تحدق به أخبية متلاحقة قد انتشر في جوانبها رجال متقلدون البنادق لا تظهر من جلبابهم القصيف الكثيف سوى وجوه سمراءوعيون تتوقد ذكاء وعزما ! وفي وسط ذلك الخباء كان رجل ربع القامة مكتنز العضلات نجل العينين أسود الشعر لا يمتاز عن بقية رفاقه الا بتلك الوسامة الجذابة التي تشع من أسارير محياه وكان يذرع الارض ذهابا وجيئة ورفاقه من حوله مطرقون ويتوقف احيانا ليجيل نظرات فيها من الوداعة قدر ما فيها

من الحدة .. وكان تفكير الرجل وجولان لحاظه في الافق البعيد اكثر من كلامه ولم يكن الشك يخامر اعوانه الملتفين حوله بانه انما استدعاهم في هذه الساعة المبكرة لامر خطير لانه لم يكن كثير التردد في شؤونه نظرا لاعتداده برأيه الصائب وكانوا يعلمون انه حريص على الاحتفاظ لنفسه بما يتلجلج في خاطره شأن القائد الحكيم الذي يدع الامور مرهونة باوقاتها حتى لا ينكشف السر فتقف دون تخطيه العراقيل .. ولم يستطع احد ان ينبس ببنت شفة لما كان الجميع يكنه للبطل العظيم من اجلال وتقدير !. ورغم ما كان يظهر على القائد ابن عبد الكريم من شارات الاعياء لقضائه الليلة بيضاء حيث كان يداب على العمل ازيد من ست عشر ساعة في اليوم فانه ابى الا ان يجمع اركان حربه ليبث اليهم ما يجول في خاطره..

وبدا الزعيم حديثه فقال : « اسمعوا ايها الرفاق . انكم تعلمون خطورة ما نحن مقبلون عليه وما يتطلبه هذا الكفاح من ايمان وثبات . كما انكم تعلمون اننا بلغنا المرحلة الحاسمة في هذا النضال الذي واصلناه منذ سنين .. ولا يزال بعضكم يذكر – وشقيقي محمد في طليعتكم – اننا نعد العدة لهذه الساعة منذ زمن بعيد، فقد فكرت انا واخي في هذه الحملة التحريرية منذ كنت ادرس انا واياه في مالقة ومدريد نحوا من عشر سنين حيث استطعنا ان نبلو هذا الخصم عن كثب فوقفنا على حقيقة مطامحه وقد شعر والدي رحمه الله بما كان يحاك لهذا الوطن من دسائس فأوفدني في مهمة سياسية الى عاصمة فاس حيث امكنني ان اتصل بالدوائر المخزنيـة لأرفع الى المولى عبد العزيز ما حملنيه والدي مـن الولاء والاخلاص.. وقد أشار علينا المخزن الشريف اذ ذاك بمحاربة الثائر بوحمارة وعدت الى الريف بعدما قضيت في فاس مدة ستة اشهر احاول دحض دعاية هذا الثائر واقناع الناس بان

الريف يجب ان يظل منضويا تحت لواء المخزن الشريف . . ومرت سنوات قضاها والدي في عزلة وتنسك ولكنه أحس بالواجب يستحثه فنفض عنه غبار الخلوة وبرز الى القبائل يدعو الى الثورة ضد الخصم الجديد (الاسبان) في طول الريف وعرضه فيخطب في المساجد والاسواق ويلهب المشاعر المتوترة ! وما زلتم تذكرون استشهاده رحمه الله في السنة الماضية وهو مخيم برجاله أمام مراكز الاسبان المربوطة بالخط الحديدي المؤدي الى مليلية . وكنت اذ ذاك برفقة اخي في اجدير نرتب اسباب الثورة فنعي الينا والدنا رحمة الله عليه ( وابتلت عينا الزعيم ورقصت لحيته الخفيفة من التأثر والانفعال ولكنه تجلد لأن الموقف لم يكن يسمح بالاستسلام للعواطف ) . . . وقد تقدم الاسبان الآن تحت قيادة الجنرال سلفستر واقتحموا الخط الرابط سيدي ادريس وانوال وتفريست لأنهم لم يجدوا أمامهم سوى فلول من رجالنا . . وقد ابلغنا رجال استعلاماتنا المبثوثون حول معسكرات العدو ان الجنرال الاسباني استفزه غرور هذا النصر البارد فحدثته نفسه بالتقدم نحو الريف . . وهذا أمر لن يكون . . . ولم يكد البطل ينتهي من كلامه حتى هلل القوم بالتكبير وقام رجل اشيب فخاطب ابن عبد الكريم وعيناه تشعان بوميض الايمان والثقة قائلا : « سر على بركة الله ونحن في اعقابك مستبسلون . وسننتصر ان شاء الله لان من كان رائده الحق لا يمكن ان يخيب ! »

وفيما كان القوم يتبادلون الراي ويرسمون الخطة للهجوم طرقت مسامعهم أنات في الخارج فأشار الزعيم الى حارس الخباء فخرج يعدو ليستطلع الخبر !

*

## الجاسوسة الهيفاء

طفقت الفتاة تهرول متسللة بين النجود والاغوار في غبش الفجر حتى بلغت نشزا من الارض يشرف على بطحاء مترامية كانت تيارات الريح لا تزال تتعاكس في جوانبها القفراء رغم هدوء الزوبعة وتلفتت الفتاة يمنة ويسرة كأنها تحاذر أن يراها احد .. ثم انطلقت تعدو وهي تغالب التيار الذي كان يضغط على جسمها البض النحيل وهي تخطو مهرولة في ذلك الفضاء الشاسع كأنها ملك لدن الاعطاف ارتخت أردان جناحيه البيضاوين عندما مست قدماه الأديم المبلل ! وكان نسيم الفجر يتخلل فستان فاطمة اليقق الناعم فينفخ اعكامه الملتوية بعضها على بعض ! سارت فاطمة رغم ما كان يحيط بها من صمت رهيب متئدة الخطو تتقصد خميلة لاحت لها ادواحها من بعيد ولم تكد تبلغ ركنا ملتف الاغصان حتى ترامت على العشب انفعالا وفؤادها ينبض نبضا سريعا .. ولم يكن هذا الخفقان وليد خوف لان الفتاة شبت على الفروسية المستبسلة ولا عن اعياء لأن قدميها مرنتا على الركض في الهواء الطلق .. ولكن نبرات ذلك الانين الذي نقر مسمعها في جوف الظلام كانت كالنصل اخترق منها الاحشاء لانها أيقنت انه أنين شخص تذوب جوانحها هياما به .. ان الجريح ليس سوى ادريس الذي أسر اليها بالامس عزمه على موافاة احد المعسكرات الاسبانية في جنح الظلام مع بعض رفاقه لاستلاب العتاد .. ولم تجرؤ على الاقتراب من خطيبها حياء من رفاقه ولأنها لم تكن تريد ان يشعر احد بوجهتها حيث انيطت بها مهمة سرية مستعجلة كان عليها انجازها خلال النهار لترجع

بالنتيجة اول الليل .. نعم كان عليها ان تتحسس مواقع العدو وتكشف مراكز الضعف وتقدر قواته لتعود بالخبر اليقين الى الكتيبة الكامنة وراء الاكمة والمنهمكة في التأهب للاغارة على الغزاة الاسبان .. احست الفتاة بخطورة هذه الرسالة فكبتت عواطفها وازاحت عن مخيلتها ما كان يعتورها من قلق على خطيبها وطفقت تفكر في وسيلة تتذرع بها للاقتراب من المعسكر الاسباني دون ان تثير اية ريبة.. وكانت تعلم ان هؤلاء لا يغفرون لمن تنسموا منه ادنى اتصال بفلول الوطنيين الريفيين ولو كان امراة .. وكانت انباء التنكيل والاضطهاد تصل الى المعسكر المغربي فيزداد المتطوعون حرارة وحماسة. وقد شعر الاسبان بالخطر يحدق بهم لان شرارة الثورة بدات تنتشر وسط قبائل الريف التي كان دعاة البطل الخطابي يلهبون مشاعرها بالاستنفار الملح للدفاع عن الوطن المهدد .! وكانت فلول المتطوعين تتوالى بخيلها وسلاحها بعد تهريبه من الحدود !. كانت هذه الخواطر تدور بمخيلة فاطمة المكدودة من جراء السهر فيسرح نظرها في هذا الفضاء الحر الطلق الذي يهدده الاسبان بالاكتساح .. ولكن اغرودة رقيقة تعالت من احد الافنان المورقة وترددت اصداؤها المشجية في انحاء الخميلة ثابت بالفتاة الى رشدها متفائلة بهذه الالحان وقامت تسير بين الاشجار حيث طفقت تلتقط بعض الاعواد المتناثرة على الاعشاب وكانت اشعة باهتة تتخلل الاغصان فتنير لها مواقع الخطو البليلة .. ثم حزمت الاعواد وتسربلت برداء من الخيش لتخفي شخصيتها وانصرفت نحو هدفها والاعواد المبللة تخشخش فوق عاتقها .. ولم يكن رائيها بشك في أنها من تلك البدويات الفريرات اللواتي ينتجعن الاجمات بكرة للاحتطاب .. وظلت تسير الى ان هاجت الهجيرة .. وكانت الشمس محرقة لافحة رغم برودة الفصل ولكن الشمس ما لبثت ان مالت نحو كبد السماء فتراءت لفاطمة فلول

الاسبان تتحرك من بعيد فانعرجت الى سفح جبل ثم تابعت طريقها داخل غور كان يخترق احدى الهضاب حتى بلغت القنة فتوارت خلف شجرة وارسلت طرفها حيث لاحظت ضآلة الجند الاسباني.. ولكن حركة هؤلاء الجند رابتها لانها شاهدت فلولا منهم يذهبون ويجيئون شاهرين السلاح في حركة عصبية واحست فجأة بالدم يتصاعد الى خدها في غليان عندما تراءى لها شبح امراة وقد ساقها أحد الجنود بعد أن طوح الى الارض باناء كان على رأسها . فشعرت ان القوم بداوا يستريبون حتى بالنساء فاستبشرت خيرا لانها أيقنت أنمعنويةالاسبان لابد ان تكونقد انحطت، لأن انكى ما كانوا يخشونه هو اندلاع الثورة وانتشار حرب الكمين في الطرق ومنعطفات الجبال وكان الاسبان حديثي عهد باحتلال هذا المركز ولكن قواتهم المرابطة فيه لم تكن تتجاوز الاربعمائة حسب تقدير الفتاة . ثم شاهدت ثلة من الفرسان تعدو نحو الجهة التي كانت متوارية فيها فخشيت ان يكون الاسبان قد راوها .!

*

## الاستعـداد

انحدر الرفاق الثلاثة الى السفح الذي خيمت فيه محلة جند الريف وانسلوا الى احد الاخبية في اناة وحذر لئـلا يوقظوا ذلك الرعيل الذي بات يسهر على امن المعسكر وكانت اطياف من الجند تتحرك في غبش الفجر ما بين مصل ومتنقل واطراف المخيم تعج بالعسس المتناثرين .. قصد الشيخ توا خيمة التمريض ليسلم رفيقه ادريس الجريح الى الممرضات اللواتي كانت بينهن أخته وخطيبته فاستقبلته الاولى في تؤدة

وهدوء وكان نبأ وصوله قد بلغها فأعدت له فراشا بسيطا حشوه ليف ووضعت بجانبه القطن والادوية لتبديل الضماد المبلل بالدم .. وكان ضياء الفجر يشعشع فيتخلل فجوات الخيمة ليلقي شعاعه الفاتر على وجه ادريس الذي لم يكد يحس بوجوده داخل الخباء حتى توردت وجنتاه بعد اصفرار وتسارع نبضه وصار يجيل ناظريه بمنة ويسرة في تلهف .. فاقتربت منه اخته وكأنها شعرت بما يتلجلج في فؤاده من عواطف فاخبرته بأن فاطمة ذهبت في مهمة وستعود قبل الليل .. فلم يزد ادريس على ان أومأ براسه ثم أغمض عينيه كأنه يريد ان يتحاشى النظر الى جوانب هذا الخباء التي توحي اليه بفيض من الذكريات ..!

... ومضى جزء من النهار ففترت لوافح الشمس وهب النسيم باردا من ناحية الغرب وكانت أفواج من الناس تتوالى من القبائل المجاورة لتتطوع بين فلول المجاهدين فيستقبلها شقيق البطل لان ابن عبد الكريم كان لا يزال منهمكا مع حاشيته في رسم خطة الهجوم وكان قد احتاط فأصدر الاوامر بالاستجمام تأهبا للرحيل في فجر الغد وكان يعلم مما وصله عن طريق عيونه والمتطوعين من أهل الريف ان الاسبان معتزمون اكتساح الجبل، ولكنه لم يعلن وجهته ريثما تعود فاطمة فتخبره بقوة العدو وكان يركن اليها لنباهتها واخلاصها وقد عرف والدها في أجدير منذ كانت لا تزال صبية تلعب بكعاب الاكباش مع لداتها البدويات .. ولكن والدها توفي في حملة تفريست فاحتضنها بين ذويه بعد ان عقد لها على أحد الفتيان من اتباعه ..! ولم تكد شمس الاصيل تنشر شعاعها الفضي حتى كان المعسكر يتحضخض في حركة عصبية ويحزم العتاد انتظارا للفجر .. ثم ساد الهدوء بعد ان اندرج احمرار الشفق في حلوكة الليل فكنت

لا تسمع الا تراتيل المصلين يقطعها بين الفينة والاخرى صهيل مبحوح لان قوارص البرد كانت قد اثرت في اصوات الخيل .. وكانت اضواء القناديل تتلعثم وسط الظلام فتخالها انعكاسات لتلك النجوم التي اذبل شعاعها تكاثف الضباب ولكن مواقد النار كانت تشتعل هنا وهناك فيلتف حولها العسس يصطلون ..!

وقد بدأ القوم يستسلمون للكرى بعد اجهاد النهار .. الا شقيقين كانا يقطعان الليل في تبادل الحديث .. وكان أحدهما يذرع الارض وهو على احر من الجمر لانه استبطأ أحد عيونه ولم تكن هذه العين سوى فاطمة وساوره عنها قلق.. فقد تكون وقعت في الاسر وقد يكون طرأ ما استوجب تأخرها .. ولكن البطل كانت تتجاذب فكره في نفس الوقت بلابل شتى لانه يعلم انه مقبل على أولى غزواته وان على مصير هذه الفزاة تتوقف ـ في نظر اتباعه ـ مصاير الغارات المقبلة.. وهو يعلم ايضا ان معنوية البدو المتأرجحة يكفي في توطيدها انتصار الخطوة الاولى لا سيما وان هنالك عقولا فطرية لا تزال تعتقد ان المصير الاول عليه المعول لغلبة روح التطير ... والبطل قد سبر النفسيات فكان في حركاته وسكناته لا يستجيب للعوامل العسكرية الا مقرونة باعتبار سيكولوجية هذه القبائل التي يتزعمها والقائد الموفق هو الذي يعرف كيف يستخدم المعنويات بقدر ما هو ماهر في استغلال قوته المادية .. وقد برهن الزعيم ابن عبد الكريم في هذا الباب عن حنكة بليغة فكانت كلمة منه تصهر الحديد وتلفح الافئدة وتذكي مهج المؤمنين بشعلة الثبات على المبدأ والثقة في الله !

.. غير ان الرجل كان اشد رأفة على جنده منه على نفسه فكان يتحرى مواقع الخطو قبل ان يتحرك ويحسب للاشياء الف حساب في اقدام المستبسل وحذر الحكيم ..!

غادر البطل خباءه في جوف الليل فتبعه أخوه وانصرف كل منهما الى ناحية لان محمدا الشقيق كان يسهر بحكم اختصاصه في الهندسة العسكرية .. على ترتيبات الجند ومعداته المادية فأبى الا ان يلقي نظرة على المعسكر قبل أن يئوب الى فراشه للاستجمام ولو ساعة من الزمان !.. أما البطل فانه تسلل ملتفا في معطف طويل الى خارج المعسكر وتسلق الجبل فأشرف من قنته على البطحاء التي كانت تترامى أمام نظره الحاد وكان الهواء بليلا والظلام حالكا ولكن لحظ البطل كان نافذا دقيقا لان العيون التي استأنست بالبادية تشع بوميض من الصفاء لا يوجد لدى الحضريين.. فما فتىء ابن عبد الكريم ان رأى طيفا يتسلل في ثنايا الظلام وقد غادر الخميلة الملتفة الاغصان فانزوى يرقب حركته في ثبات وهدوء !!

*

## صد هجوم

مرت بضعة أيام على الانتصار .. وكان بطل الريف يعد العدة للمعركة الكبرى لان الجنرال سلفستر قائد القوات الاسبانية أبرق اليه بانذار صارم رغم هزيمته فأجابه ابن عبد الكريم بالتحدي الصامت منهمكا في أخذ الأهبة.. وان جواب السيف لأصدق جواب لهذا النوع من الاستفزاز .!

.... كان نبأ النصر قد تطاير فبلغ اقصى شمال الريف حيث أثار موجة من السرور والحماسة وقد توارد خلال الايام الاولى على المعسكر بضع مئات من المتطوعين من القبائل المجاورة كبني ورياغل وبني توزين لتعزيز جبهة

الدفاع عن خطوط الريف ولكن عدد المحاربين لم يكن يتجاوز في المجموع الف مقاتل ما بين فرسان ومشاة بينما كان الاسبان يحشدون قوات تقدر بثلاثين الف رجـــل مجهزين بالمدافع والرشاشات عدا الطائرات التي تعززهم من الجو ..!

... كان المتطوعون ما زالوا يتوالون زرافات ووحدانا ببنادقهم وافراسهم وكان المعسكر اذ ذاك هاجعا يقيل مـن حر الهاجرة والحرس يذرعون الارض ذهابا وجيئة فـي الاطراف واشعة الشمس تتلاعب على صفاح الرشاشات والمدافع المسلوبة من العدو خلال تقهقره الاخير ..

وأمام أخبية النساء كان الفتى ادريس ممتدا فوق مقعد مستطيل يتملى بمنظر المروج الخضراء المترامية امامه وقد نقه من الجرح البليغ الذي كاد يودي بحياته .. وكان يقوم بين الفينة والاخرى ليدب قليلا على قدمين تورمتا من طـول الامتداد .. وكانت عيناه تتقدان وهما تتطلعان بتلهف الـى الأفق فيخال الناظر اليه انه وميض محموم .. ولكن ذلك الأوار لم يكن سوى نفثة من فؤاده الهائم سرت بين اضلاع لم تسطع كبتها فانفجرت مآقي العين ومسام الجسم مثيرة في هذا الهيكل المهزول لواعج اشبه بلواعج المحموم .! انه الحب يكهرب القلب ويسيل تياره في الاوردة والشرايين فيذكي الجوانح باكسيره المنعش .!... كان ادريس اشوق ما يكون الى خطيبته فاطمة التي ودعها منذ ثلاث ليال عندما كـانت تتأهب لمغادرة المخيم في مهمة سرية غير محدودة الاجل وفي نفس الوقت طوال ثلاثة الايام المنصرمة كان ادريس يخرج متوكئا على عصاه الى باب الخباء الصحي الذي اكتظت سرره بجرحي جدد ـ منتظرا عودة فاطمة .. غير أنه احس اليوم بلهيب خاص في حناياه يبشره بقرب الحبيب .. وقلـوب الأحباء لها اسلاك تمتد في الاثير ... خرجت اخت ادريس

في تلك الآونة حاملة لاخبها كأسه من الشاي فاقتربت منه فلم يشعر بوجودها لان نظره كان سابحا في الافق يتطلع الى طيف يعدو فوق فرس ادهم ... وخاطبته فانتفض وغشت محياه حمرة قانية فتجلى في مظهره الخفر كالطفل الساذج وكان ادريس فتى يستخفه كل شيء الا الشدة التي يواجهها بقلب صلب رصين .! التفتت الفتاة نحو الجهة التي كان يشرئب اليها اخوها فاستبانت فاطمة وهي تعرج نحو خيمة القائد مشيرة بيدها الى جهة ادريس الذي احس بوخزة في نفسه لأن خطيبته كانت قد اعتادت السلام عليه قبل الذهاب للافضاء بنتائج مهمتها .. ولكنه تمالك وقد خطر في مخيلته فجأة خاطر أومضت له عيناه ببريق العزم فانبرى يذهب ويجيء كانه يجرب مدى قدرته على الاستمرار في السير وكانت الحماسة قد أطلقت منه المفاصل فلم يعد يشعر بتوعك فاستنارت ملامحه بشرا .. غير أنه ما لبث ان اكتأب لانه تذكر ان الجرحى لا يسمح لهم باستئناف القتال الا بعد تمام البرء لئلا يكونوا لقمة سائغة للعدو.. وما هي الا لحظة حتى صدقت نبوءته لان المنادي خرج من خباء القائد يستنفر الفرسان على جناح العجل فلم تكد تمضي فترة وجيزة حتى كان ابن عبد الكريم يقود كتيبة متوجها نحو سيدي بيان شمالي غربي انوال .. وتوسط القائد فرسانه وهم يركضون وافضى اليهم بسر هذا الزحف فارتسمت في العيون أومضة خاطفة كانت أصدق انعكاس لما يتلجلج في الصدور من قوة العزيمة .. وطفق الركب المسلح يعدو صاعدا نازلا بين الوهاد والنجود والفتاة فاطمة تسير في الطليعة رائدا للقوم .. وكان الجنرال الاسباني قد أهاجه الغيظ فلم يتمالك عن الهجوم زجرا لهؤلاء «الثوار» على اهانتهم الصامتة .. وقد لحظت جاسوستنا السمراء بوادر الهجوم وهي ترقب حالة العدو فخفت الى بطل الريف تنذره فلم يتردد هذا في المبادرة

برد الغارة مصدرا أمره بعدم اثقال الحملة بالمعدات الكثيرة فاكتفى الفرسان ببنادقهم وببضع رشاشات ...

.. وفجاة ظهرت فلول الاسبان خلف نشز من الارض فتوقفت مشدوهة ولكنها ما لبثت ان تماسكت لان خيل كتيبة الريف كانت تلوح بذوائبها راكضة نحو افراس العدو المتراجعة ... وقد بدأ الوهن يتسرب الى قلوب الاسبان لأنهم أحسوا أن الثورة الشعبية توشك ان تندلع من ورائهم وأن سكان الريف اصبحوا كلهم عيونا تحصي عليهم الحركات والسكنات ! وما هي الا لحظة حتى امتزج الطرفان في تماوج عنيف توارى خضمه خلف ستار كثيف من الغبار ودخان البنادق وكانت بوارق خاطفة تتلألأ بين الحين والحين فيعقبها دخان او تتلوها صرخة شاهدة ببلوغ الخنجر الحاد الوضاء هدفه لان جند الريف لم يكونوا يأنفون من استعمال السلاح الابيض عند الحاجة لا سيما اذا أدى هذا التماوج الى اختلاط يضطرهم الى الاقلال من اطلاق الرصاص مخافة أن يصيب غير الاعداء .. وكان صهيل الخيل الجامحة يشق الفضاء ممتزجا بطلقات البارود .. واخيرا انقشع الجو فظهرت في الافق أسراب من الاسبان مولية الادبار وفي اعقابها فرسان الريف يركضون .. واسفر هذا العراك الذي امتد بضع ساعات عن سقوط نيف وثلاثمائة من الاسبان وسبعة عشر ريفيا ..

*

قبيل الفجر رغم الحلوكة التي لفت طريق المجاهدين بسربال دامس وكان النسيم يهب قارسا فيجمد المفاصل .. ومع ذلك طفق القوم يتحسسون طريقهم خلال الظلام وكانوا قد استأنسوا بالاغوار والانجاد المتعاقبة في هذه المنطقة الجبلية.!

كان البطل ابن عبد الكريم يسير في الطليعة ممتطيا فرسا أجرد وقد تمنطق بحزام قد شحن رصاصا وهو يلوح ببندقيته في ثنايا الغبش وثلة من الفرسان محدقة به شاهرة سلاحها .. وقد قطع الليلة بيضاء بعد نهار مليء بالتفكير في الخطط والعمل لتحقيقها .. ومع ذلك فقد كان هو واخوه وبقية الفرسان يتأججون توقانا لمقابلة هذا العدو الذي تجرأ على انتهاك الحرمات وامتهان الشيوخ والنساء، والذي لم يكن يتردد في مقارفة اسوأ انواع الفتك والتنكيل « لزجر من تحدثه نفسه باعانة من يسميهم بالثوار » وكانت فاطمة قد عادت من جديد الى المعسكر بعد انتصاف الليل، فوصفت ما شاهدته من مظاهر الاضطهاد وقدمت تقريرا شفاهيا عن مراكز العدو وكان السبب في تاخرها الى الهزيع الاخير هو انها لم تكتف بتقدير قوات العدو من بعيد فجازفت بنفسها بين أخبيته بعد ان خيم الظلام ، وكان العسكر مستسلما للنوم يستريح مما قاساه من عناء في سبيل تمهيد هذا المركز الذي تمكن من الاستيلاء عليه منذ أيام .. وكان الاسبان منتشرين في مراكز اخرى خشية اندلاع الثورة وراء الخطوط وهم يحسبون الف حساب لحرب الكمين التي لا يطيقون تحملها في هذه المسالك الوعرة المستعصية على غير اهلها .. وهم لم يصطدموا لحد الآن باي عنصر من عناصر السكان وهذا هو ما جرا الجنرال سلفستر على التفكير في اكتساح الريف لضمه الى السهول الجنوبية والشرقية ..! عادت فاطمة بعد أن نجت بأعجوبة على اثر ظهور طيفها لأحد الحراس الذي لم يكد يتخايل له الشبح المتسلل في الظلام حتى اطلق النار

ولكن الفتاة كانت قد شعرت فهرولت نحو فرس وقبضت بيد فولاذية على عنانه ثم قفزت الى صهوته فانبرى يعدو خلال الظلام وقد زادته جموحا رائحة الرصاص .. وطفق يركض ركضا عنيفا والفتاة تتأرجح فوق ظهره ماسكة بطنه بقدميها وزمامه بيديها حتى اعترضته خميلة متشابكةالاغصان فتوقف وكانت فاطمة قوية الجنان حاضرة البديهة فبادرت بالقفز الى الاعشاب قبل أن يعود الفرس أدراجه من حيث جاء .. ومن حسن الحظ انها لم تصب الا برضوض خفيفة في يديها فهبت رغم الضنى الذي كان يقطع أوصالها واتجهت نحو مخيم ذويها موقنة بأن العدو لا يمكن أن يتعقبها في هذه الوهدات الحالكة ووصلت فوجدت زعيم الريف ينتظرها وهو على أحر من الجمر لان الليل كان يدبر بسرعة والقائد معتزم عقد آخر اجتماع مع شقيقه وبعض معينيه لاصدار آخر اوامره طبقا للمعلومات الجديدة التي تأتي بها الفتاة ..! وما هي الا ساعة حتى كان المعسكر الهاجع قد هب تلبية للنفير فجمع اقتابه بسرعة وبدا الزحف خلال الظلام ..!

.. لم يكن الجند يعلمون الوجهة التي ينتحونها لان من عادة القائد ان لا يعين هدفه الا في الوقت الذي يراه مناسبا.. لذلك لوى عنان فرسه واندس بين الكتيبة يخطب فيها ويدعو الى الاستبسال في المعركة المقبلة محذرا من التخاذل او النكوص ..! وكان بين الفرسان نساء ابين الا مرافقة الغزاة لشد أزرهم واسعاف الذين قد يصابون منهم بجروح.. فكان الجميع يكبر بصوت واحد اشارة الى الرغبة في الاستشهاد او النصر ..!

واخيرا لاحت المخيمات الاسبانية كبراقع سوداء وسط الفلس وما زالت تتضخم حتى استبان الغزاة معالمها فانتشروا لئلا تسترعي حركتهم الجماعية الانتباه.. وكان القوم غارقين

في ذلك النوم الثقيل الذي يعقب عادة المناورات المضنية ولكن لم تكد تلك الثلاثمائة من فلول الريف تقترب من المركز حتى تعالى نفير الابواق وتردد صداه رهيبا في ذلك الفضاء الشاسع الذي سيلتحم فيه الفرسان .. هب القوم مذعورين فخفوا الى افراسهم وقد زادتهم المفاجأة ارتباكا ولكن الشعور بالخطر جعل منهم مغاوير يستأسدون في الدفاع عن هذا المركز الذي ليس وراءه الا السهول الفيحاء .! اختلط الحابل بالنابل وتراكضت الافراس في اشتباك فظيـــع وتساقطت الجثث فتعثرت الخيل في ركامها الدامي وتصاعد انين الجرحى وكان الجو مظلما لامتزاج دخان الرصاص بالغبار التي تثيره الحوافر الجامحة .. ولكن عيون «الروافة» الحادة كانت تتبين الخصم وسط ذلك الخضم المتماوج فتجهز عليه حتـى صرعـت اربعمائة فارس وفر الباقون بجلودهم الى المراكز الخلفية ..! ولم تكد الشمس ترسل شعاعها على الاديم الدامي حتى ظهرت اكوام القتلى منتشرة هنا وهناك وكانت الاوسمة البراقة تتلألأ تحت أشعة الشمس فوق صدور ستة ضباط انتشرت أشلاؤهم بين جثث الجنود .

*

## اضطراب الاسبـان

مرت أيام على الفزوة الثانية قضاها بطل الريف فـي استقبال المتطوعين وتجهيز الحملة المقبلة والمداولة مع الدعاة الذين انيطت بهم مهمة الترحيل الى ما وراء الريف لتنظيم الثورة ضد خطوط الاسبان الخلفية ، وفي تلك الاثناء كان محمد شقيق القائد يشرف على خزن الاسلاب مـن المدافع والرشاشات والبنادق والسيارات وكان الامر الصارم يحظر

استخدامها قبل نشوب المعركة الكبرى التي يتوقع ان تكون فاصلة. وفي نهار اليوم السابق خفت كوكبة من فرسان الريف الاشاوس واحتلت ممرا استراتيجيا مهما لقطع خط المواصلات على الاسبان، وقد وصلت الى الزعيم ـ عن طريق عيونه المنبثة حول معسكرات العدو ـ معلومات تفيد ان الجنرال سلفستر قائد الجيش الاسباني اضطر أمام انقطاع الممر المذكور الى تعزيز الثلاثين الف مقاتل المرابطة جنوبي الريف بعتاد جديد فيه انواع المدافع والسيارات الحربية . وصلت هذه الانباء في الصباح الباكر فعقد القائد مؤتمرا مع اخيه دام نحو الساعة ثم خرج من خبائه واتجه نحو نشز من الارض فانبثق الجنود من كل مكان كانهم كانوا على ميعاد.. والواقع ان خطورة الحالة لم تكن تخفى على احد ، والمقاتلة كانوا ينتظرون بفروغ صبر الامر الحاسم الذي سيصدر من الزعيم متنقلين بين ثنايا المعسكر في غير فرار ، وقد زادهم تحمسا ما حكاه المتطوعون عن الحشود الهائلة التي كدسها الاسبان .

قام البطل خطيبا في بزة فرنجية وكان يلبسها في بعض الاحايين وقد اتقى اشعة الهاجرة بنظارتين سوداوين فحيا القوم ثم قال : « لعلني في غير حاجة الى حثكم على الثبات والاستبسال لما ابديتموه من ضروب البطولة في المعارك السالفة رغم قلة اعدادكم وعددكم ولست في حاجة ايضا الى ان اقول لكم ان موقفنا يتحرج واننا مقبلون على صراع طويل عنيف .. فان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة. ولتذكروا اننا اذا ما هلكنا فستداس مقدساتنا وتنتهك حرماتنا وسنفقد هذه الحرية التي تمتعنا بها منذ مئات الاجيال في ظل الاسلام وملوك المغرب. وان مليونا من النسمات لتتطلع وراء الجبل الى مصير هذه الفئة القليلة التي هبت للثأر من غزاة ارادوا ان يشنوها صليبية على الاسلام ! ان للثأر من غزاة ارادوا ان يشنوها حربا على الاسلام ! ان

التضحيات التي تتحملونها لا للذب عن حوزة الرقعة الجبلية من المغرب الاقصى فحسب ولكن للدفاع عن الاسلام في كل مكان .. ولعل الله سيبارك في هذه الشرارة الاولى فتندلع لتحرر الاسلام والمسلمين من قيود واغلال صفدتهم بها تكتلات استعمارية تكاتفت لمحو خريطة الاسلام من الوجود . فاذا قدر لكم ان تموتوا فلتموتوا في عز .. غير انني لا اتلمح سوى النصر لان الوهن قد تسرب الى صفوف العدو اثر الضربات القاسية التي تلقاها من هذه العصابة المستميتة .. ولا تفرنكم جحافله .. « فان تكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين » وكانت الدموع تنهمر من عيون المجاهدين وهم يستمعون الى خطاب البطل الذي كانت كلماته النارية تزكي مهجهم المكلومة .. ولم يكد يلفظ آخر جملة حتى ارتجت المحلة بالتكبير .

ولم يشر القائد الى ميعاد الحملة المقبلة تاركا كل خطوة لأوانها ، على ان القوم ادركوا ان الزعيم يفضل هذه المرة ان يترك للاسبان عناء الهجوم : فما دام الاصطدام لا محيص عنه فخير ان يكون في شعاب الجبال .. فليترك اذن الجنرال سلفستر يقترب بقواته الى هذه القمم السامقة فسيضطر الى ترك معداته الثقيلة وسياراته في السهل وسيتأتى آنذاك لهذه الكتائب الريفية ان تسلط على المغيرين نيران رشاشاتها ومدافعها لا سيما وقد انضم اخيرا الى المتطوعين ضباط ريفيون تخرجوا من المدارس العسكرية الاسبانية واظهروا مهارة في استعمال الاسلحة الثقيلة ودربوا عليها طائفة غير قليلة من الرماة ، وكانت الرياضة والتدريب هما الشغل الشاغل للقوم طوال النهار ولم يكن النساء يتخلفن عن دروس الرماية اذ من يدري فقد يضطرهن تازم الحالة الى الانتقال من التمريض الى الصراع واضمن وسيلة للنجاح هي حشد

جميع عناصر القوة . . . تلك كانت بعض نظريات الزعيم وهي نظريات آتت اكلها منذ اللحظة الاولى .!.

. . . انتشر المجاهدون في انحاء المعسكر بعد انتهاء الخطاب جماعات جماعات يرددون هذه الكلمات الذهبية ويعلقون على تطورات الحال . . وكان ادريس وفاطمة قد جلسا تحت ظل احد الاخبية يستمعان الى حكاية احد الجواسيس ، وكان لفاطمة نفوذ قوي لدى افراد هيئة الاستعلامات الريفية الذين قدر لها ان تعمل في دائرتهم منذ شهور فكانت مغامراتها مثارا لاعجابهم فلم يستطع ذلك الجاسوس ان يضن على زميلة مخلصة بمعلومات كان عليه ان يكتمها عن كل احد . . وكانت خلاصة هذه المعلومات السرية ان الاسبان يستنفرون جنودهم للجمع العام في جنوب انوال وهو المركز الحربي الاول للجنرال سلفستر . . وبينما الثلاثة مستغرقون في التعاليق سمعوا من الخلف ضوضاء فاذا رجل في زي اوروبي قد أحاط به الحرس وساقوه الى خباء الزعيم . . .

*

## شرارة الحماسة

نحن اليوم في تاسع عشر يوليو من عام ١٩٢١ ... الطقس محلولك وبرد الفجر قارس والنسيم يهب بليلا فيجمد المفاصل ... ولكن الارض معشوشبة خضراء تتلألأ على أديهما قطرات الندى .. والسكون ضارب اطنابه فوق هذه الهضاب الوادعة يخرقه بين الفينة والفينة صهيل خافت او خوار قطعان البقر السائمة في شعاب الجبال .! كان اليوم

يوم سوق.. وكان البدو الجبليون ينحدرون زرافات ووحدانا الى السوق راجلين او ممتطين بغالا ضامرة تتشبث حوافرها بجرف الجبال فلا تتقلع الا لتنغرز من جديد في ارض حجرية كاداء .! وابرز ما كان يسترعي النظر في هؤلاء البدو نصاعة بياض ابشارهم وملبوساتهم ووسامة وجوههم .! وفي بحبوحة بطحاء مترامية انتشرت خيام غصت جوانبهابالرائحين والغادين وكان دخان الشواء يتصاعد في الجو فيحمل النسيم ذراته المنعشة الى الخياشيم .. ولو قدر لك ان تزور اسواق البادية في الضحوة لما تمالكت عن الاحتباء امام هذه الاخبية التي تبيع الشواء حتى ولو كنت قريب عهد بفطور الصباح .! وكان بائعو التوابل والدواجن واللحوم ينادون على بضائعهم بلهجة فخمة النبرات تذوب رطانتها في ذلك الخضم من الهذر الصاخب . الا ان الوجوه لم تكن ترتسم عليها تلك الابتسامات الغريرة الوادعة التي يمتاز بها اهل الوبر من سكان الهضاب.

وكنت ترى جماعات تتهامس وعلى محياها الساهم قطوب وفي حركتها انفعالات عصبية لا تكاد تظهر الا للحظ دقيق .! وانتصف النهار واشتد حر الهاجرة وبدات جوانب السوق تخلو شيئا فشيئا وساد صمت رهيب كان الناحية قد اقفرت .. ومع ذلك فقد كانت الاخبية قائمة واصحابها ما زالوا يعمرونها والبضائع لا تزال مكدسة امامهم بشكل غريب .. ماذا ؟ ان السوق اوشكت على الانفضاض وزوارها قد انفرطوا والبضائع ما زالت هي هي .! هذه هي المرة الاولى التي بدرت فيها هذه الظاهرة التي اقلقت باعة كانوا ينفضون ايديهم عادة قبل ان تميل الشمس الى كبد السماء !.. وكان بين تلك الفلول المتناثرة في جوانب السوق فتى وسيم نحيل مكتنز العضلات وفتاة هيفاء رشيقة يتجولان بين الباعة ساحبين وراءهما بضعة من الحمير والبغال قد ثقلت ظهورها بالخضراوات واللحوم .. ولم يكن ذلك الشخصان سوى

ادريس وخطيبته فاطمة وفدا الى السوق في جملةالوافدين لبستطلعا نفسية الجماهير ومعنوياتها على اثر الانباء المنذرة باقتراب الجيش الاسباني الزاحف .. وراعهما ان ينصرف الكلنساء ورجالا الى حديث الجهاد والمجاهدين وان يكون في لهجة الكل تلك النبرة من الحرارة والحماسة .. وكان الكل في شغل شاغل عن السوق وجواذبه ولولا حب الاستطلاع والاستعلام عن سير الاحداث وتطور الكفاح لما نزل الىالسوق احد .. فأهل الجبل قوم مقلون يكتفون باللقمة الزهيدة ويزدادون زهادة عندما تنصرف عقولهم الى ما يهدد حريتهم ومقدساتهم من اخطار فيوفرون ما لديهم من قليل لاعانة المجاهدين .! وكانت فاطمة تندس بين النساء لتبث بينهن الدعاية ضد الاسبان بينما كان ادريس يتسلل الى جماعات الرجال ليدعوهم الى الاستعداد للثورة وحرب الكمين اذا ما تمكن الاسبان من اختراق خطوط المجاهدين الامامية .. وكان لهذه الانذارات آثار بليغة في النفوس فاحس الناسباقتراب الخطر وتحركتفينفوسهم عواطفالنخوةوالاريحيةالعربيتين .! وكان زملاء ادريس وزميلات فاطمة ينبثون يوميا في الاسواق لتمهيد الثورة في طول الريف وعرضه فيجدون من الجميع آذانا مصغية وعزائم متاججة لان هؤلاء الجبليين اباة يانفون الضيم ويفضلون الموت على ان يمسوا في كراماتهم وتراثهم .. فاذا وجد من يذكي هذه العزائم جعل منها رديفا جبارا لمعارك الكمين في منعرجات الشعاب ومنعطفات الهضاب ..

عاد كل من فاطمة وادريس ادراجه وهما يطفحان بشرا لاندلاع نار الحماس في الجبل ضد الغزاة وطفقا يطويان الارض تحت أشعة لافحة حتى لاحت لهما اخبية المعسكر وقد امتدت ظلالها المستطيلة فوق الاديم الصلد .. ولم يكادا يصلان الى المخيم حتى اتجها نحو مستودع الاقوات لايداع تلكالحمولة

الثقيلة التي تنوء تحتها ظهور الحمير والبغال .. ثم عرجا على خباء النساء فاستقبلتهما ببابه عشوشة اخت ادريس وافضت اليهما بحديث ذلك الصحافي الاوروبي الذي قطع الفيافي للاتصال بالزعيم واستجوابه وعن اللباقة التي قوبل بها من طرف هذا الاخير الذي اعتذر له عن تعنيف الحراس اياه وكان الصحافي ايطالي الجنسية يتحدث بالفرنسية وشقيق الزعيم يترجم عنه وقد أبدى دهشته من قلة قوة الريف وكان يلوح عليه انه متحيز في تعليل النصر الذي احرزته هذه العصابة ضد الاسبان الاقوياء رغم ضآلة معداتها .. ولكنه ايقن بعد الحديث الذي اجراه مع الزعيم ان الغلبة تكون في النهاية لمعسكر الايمان وان الحق يعلو ولو كان اعزل!!

*

## مناوشات أنـوال

كانت الليلة قائظة والنجوم متلألئة والسكون شاملا .! وكان معسكر الاسبان المترامي هاجعا تتناثر فيالقه هنا وهناك في البطاح الموازية لسفوح الريف .!

.. وفجأة ترددت أصداء الابواق فخرقت تلك السكينة التي كانت تلف السهول الخضراء بسربالها الوديع ولاحت في الحين حلقات من الاضواء الباهتة تشعشع في جوف الظلام فكان الناظر من بعيد في هذه الحلوكة الرهيبة يخال ان النجوم قد عكست ضياءها بغتة فوق نهر هادىء الاديم .!.. ولكن الانوار كانت تنبثق الواحد تلو الآخر فتتلاوح بينها أشباح

تتنقل في حركات عصبية .. وكانت أصوات غريبة ترتفع من وسط المعسكر ما بين قراقع الاسلحة وصهائل الخيل وزئير السيارات .! ثم تعالت في الفضاء الحان وتراتيل فشوهد على ضوء قناديل ضخمة يحملها الجنود شخص أصلع الرأس قد تسربل بكساء ابيض وهو يرسم في الهواء خطوطا متعارضة علامة الصليب داعيا بينما آلاف الاصوات تردد تأميناته بحماسة .! ثم هدأ كل شيء وخفتت الانوار وكان الفجر ـ فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليوز قد أوشك ينبلج ولكن الظلام كان لا يزال سائدا ثم ظهرت مشاعل يوقن من يراها تتحرك بتلك السرعة انها محمولة على ظهور الجياد او متون السيارات ... لقد بدأ الجيش الاسباني زحفه في غبش الصبح وهو يحسب انه سيباغت فلول الريف ولو شاهد الاسبان الاشباح التي كمنت طول الليل بين أعكان الارض مراقبة حركاتهم وسكناتهم لأيقنوا أن جند الريف قوم لا يمكن أن يؤخذوا على غرة لا سيما وقائدهم ابن عبد الكريم لم يغمض له جفن في الليالي الاخيرة اذ ما كاد جيش الجنرال سلفستر يتحرك بخيله ورجله وسياراته وعتاده موليا وجهه شطر انوال التي يرابط فيها الريفيون ـ حتى كانت عيون ابن عبد الكريم قد طيرت اليه النذير .!

انقشع الغبش رويدا رويدا فظهر الجنرال الاسباني ممتطيا صهوة جواد ابيض تحدق به ثلة من الفرسان الضباط يسير خلفهم جحفل لجب تغيب مؤخرته وراء الافق .. وكان وقع الحوافر وطنين المحركات يمتزجان ، في هذا الفضاء الشاسع امتزاجا رهيبا .. وكانت حركات الجنرال وتوالي لفتاته واهتزازه المستمر ينم عن انفعال.. كيف لا وهو مقدم على معركة سيكون مصيرها الحياة أو الموت .. ولم يكن يخفى عليه مدى الاخطار التي يستهدفها رغم الثلاثين الفا من الجنود

الذين يتألف منهم جيشه لانه عاين بنفسه خلال المعارك السالفة كيف يستهين الريفيون بالموت وكيف يزجون بانفسهم في الوطيس الحامي وهم عزل الا من شفرات وخناجر يصرعون بها بسرعة غريبة العشرات من الاسبان .. وقد قاسى الجنرال ايضا شيئا من اخطار حرب الكمين حيث تعرضت كتائبه لطلقات كانت تنشال عليها من اغوار الارض وانجادها فتردي المئات من الجنود دون ان تمس فلول الوطنية بسوء ! ... كان الجنرال يسير وهو يحسب الف حساب لما يخبئه له هذا اليوم ولولا تبريكات القسيس الذي تفاءل للجيش بالنصر المكين لما استطاع ان يتماسك من فرط التأثر، وهو يعلم انه هو وحده المسؤول عن هذه الآلاف من النسمات التي يسوقها اما الى النصر واما الى المجزرة لان سياسته العنيدة هي التي ادت الى اندلاع الثورة فلم يكن لينفعل اذن عن جبن وانما هو شعور بضخامة التبعات .!

وصل الاسبان الى سهول انوال في ضحوة النهار . وكانت الشمس لافحة والجو خانقا وقد زادت الطقس انضغاطا هذه الاعمدة من الغبار التي تتصاعد في عنان السماء! وبدات هضاب الريف الامامية تظهر وقد كمنت وراءها قوات المؤمنين منتشرة ذات اليمين وذات اليسار، والجنرال الاسباني وان لم يكن يعلم بوجود هذا الكمين الا ان المخاوف التي تنجلجت في صدره حدته الى اصدار اوامره بالتأهب للنزال احتراسا وحيطة .. وقد سبق له ان لدغ مرارا بما تمخض عنه الجبل الوديع بغتة من نيران مدمرة كانت اشبه بحمم بركان تقاذفت بعد هدوء .. غير ان الجنرال لم يكن يفوته من جهة اخرى ان جنود الريف ان كانت لا تظهر فما ذلك الا لكونها قليلة لان مغارات الهضاب واعكانها لا يمكن ان تواري جيشا بكامله ومع ذلك فقد كانت المخاوف تاخذ بحجزة نفسه

فلا يتمالك عن الاضطراب.. وكان أركان حربه يسيرون حواليه وهم يرمقون آثار الانفعال البادية على محياه فتتزايد بلابلهم علما منهم بأن القائد كان أعرفهم بأخطار معارك الجبل وكانوا يتطلعون الى ما ستنبس به شفتاه ولكنهم ما انتظروا طويلا لان الجبل تفتق عن طلقات مدوية انحدرت الى الجيش الزاحف فأردت منه عشرات دفعة واحدة وكان للمباغتة أثرها فتوقف الجيش وانطلقت مدافعه تصمي في اضطراب منحدرات الجبل بنيرانها فترتد خاسئة لكمون الروافة في مخابعهم الامينة التي كانوا يرمقون من خلالها مناورات العدو دون أن يتمكن هو من رؤيتهم وبدأت قعقعة المدافع تتعالى في الفضاء المحلولك بالدخان ...

*

## الاستعداد لمعركة انوال

استمرت المعارك حامية الوطيس منذ اربعة ايام ولكنها كانت معارك بغير نزال لأن الخصمين اكتفيا بتبادل اطلاق النار .. وكان الاسبان يهدفون بتحدي فلول الريف الى حملهم على افراغ ما في جعاب بنادقهم من رصاص لانهم يعتقدون أن ما لدى الريفيين من بارود لا يكاد يوازي ما عندهم لا سيما وأن الامدادات تتوالى على معسكرهم بسرعة لاستخدامهم السيارات حتى وان كان في استطاعة الريفيين تهريب السلاح فان نقله على ظهور البغال بين الانجاد والاغوار يتطلب مدة مديدة بينما الصراع يستنفد جهد اهل الريف .. وكان البطل ابن عبد الكريم قد تنبه الى هذه المكيدة فامر بالاقتصار على البنادق وترك المدافع الى الهجوم الاكبر وقد

ساعدت منعرجات الجبل ومكامنه جيش الدفاع على ايقاف تيار المغيرين وبث الاضطراب في صفوفهم لانه كان في مأمن من طلقاتهم بينما استطاع هو أن يردي جميع من يجازف بنفسه في الخط الامامي ..

وكان فرسان الريف ينحدرون عند ما ينيخ الظلام بكلكله فيجوسون خلال صفوف الاعداء وقد تزيوا بأزيائهم .. وكانت لهم من هذه الازياء كميات لا بأس بها انتزعوها من جثث القتلى الذين سقطوا في المعارك السالفة .. ولأهل الريف طريقة غريبة في التسلل خلال الظلام .. فان الاسبان كان يخيل اليهم أحيانا انهم يسيرون وحدهم في بطحاء من بطاح الريف .. فلا يلبثون أن يشعروا بثلة من الروافة قد أحدقت بهم وكأنها انبثقت من باطن الارض .. وكان لمران جندالريف على تسلق الجبال والانبطاح بين الاعشاب والسير الحثيث على البطون يد في كثير من المفاجآت التي سقط فيها الاسبان تحت ضربات أيد عزلاء الا من العبارة والعصى ... ولكن روح الاستبسال المتفتقة عن الايمان كانت في الحقيقة أمضى سلاح .!

نزل جنود في ليلة الخامس والعشرين الى محلة العدو فاستلبوا منها عددا كبيرا من الرشاشات الخفيفة .. وكان عيونهم قد اخبروهم بموقع مستودع السلاح وراء الخطوط فنزل اليه اولئك الجنود بعد أن عرجوا من طريق ملتوية متوارية عن أعين الرقباء من حرس الاسبان.. وكانت المستودعات عبارة عن خيام مضروبة في العراء قد تكدست في جنباتها البنادق والرشاشات والرصاص وبراميل الوقود وكان بازاء كل خباء حارس قد شهر بندقيته .! وكان من بين من نزل تلك الليلة ادريس وخطيبته فاطمة في فوج لا يعدو افراده

العشرة وقد عقلوا مطاياهم على بضع مئات من الامتار .. وكان الهيام قد بلغ بين الخطيبين مبلغا لم يعودا يسمحان لنفسيهما بالافتراق ولو لحظة لا سيما خلال الغارات الليلية المليئة بالاخطار .. على ان هذا القرب كان يثير في الحبيبين حماسة وحرارة غريبتين فكانا يغامران بشكل غريب حدا احيانا بعض الذين يعطفون على شبابهما الغض الى النصح لهما بعدم المجازفة ولكن الحب الذي وصل بين هذين القلبين كانت أسلاكه قد استوثقت بحب آخر هو حب هذا الوطن المهدد حتى كان الخطيبان يتساءلان احيانا عن مثار هذا الحب في نفسيهما فلا يجدان غير وحدة ذلك التيار الوطني الساري في روحيهما الفتيتين .! انسل ادريس وهو متمنطق بخنجره وكانت فاطمة تتسلل في عقبيه وقد شهرت مسدسها مستعدة للضغط على زره عند الحاجة .. ولكن خطيبها المغوار انبثق من وراء حارس الخباء فضغط بيده اليسرى على فيه بينما ارداه صريعا بضربة قاسية فوق ناصيته الصلعاء .. وكان في وسع ادريس ان يفرز خنجره في جوفه ولكن شهامته العربية أبت عليه ان يأخذ الخصم من الوراء وان لا يترك له مهلة الدفاع عن نفسه ففضل تغييب وعيه بهذه الضربة التي كالها له بمقبض خنجره ريثما يدخل هو ورفاقه الى المستودع لاستلاب ما خف حمله من السلاح .. وكان الفوج كالسلسلة يناول مقدمها مؤخرها الكامن قرب المطايا .. فما زالوا يختلسون حتى امتلأت المخالي والصهوات فعادوا ادراجهم كما جاءوا لاتكاد اقدامهم تمس الاديم احتراسا وحيطة .

وصلوا الى معسكرهم فوجدوا الجند قد هب لصلاة الفجر غير انهم لاحظوا حركة غير اعتيادية وشاهدوا مجموعة من المدافع الصغيرة قد صوبت افواهها من خلال فجوات من الجبل نحو السهل حيث رابط الاسبان، ولم تكد فاطمة

تصل الى خباء التمريض حتى تلقفتها عشوشة شقيقة خطيبها ادريس بنبأ الاستعداد للهجوم الاول بعد اربعة ايام اكتفى فيها الريفيون بالدفاع ..

*

.. هب المعسكر الاسباني مذعورا تحت طلقات المدفعية الريفية التي كان يدير دفتها ضباط فتيان تخرجوا مـن المعاهد العسكرية الاسبانية وتدربوا في الفيالق العدوة فمرنوا على الاسلحة النارية وكان غبش الفجر لا يزال مائلا الـى الحلوكة فكنت ترى النيران التي تقذفها افواه الرشاشات والمدافع تنحدر كالبرق الى مراكز الاعداء .. وكانت ثلة من المشاة قد انسلت خلال الظلام الى احد جوانب الخط الامامي ففاجأت العدو بطلقات الفاتكة فتزايد ذعر الاسبان وتراجعوا في الحين محاولين تغطية انسحابهم بسياج من الطلقات المتكاثفة التي كانت ترتد خاسئة بعد أن ترتطم بسفح الجبل.. وما هي الا لحظة حتى انصبت عشرات الريفيين كالسيل لاحتلال المركز الاول الذي جلا عنه الاعداء فوجدوا امامهم كمية وفيرة من المدافع الصغيرة والبنادق والذخائر المختلفة وقبضوا على عشرة اسرى .. ثم انتشروا للاجهاز على من عسى أن يكون لا يزال كامنا بين الاعشاب من الاعداء فلم يصطدموا الا بجثث بعض القتلى ..!

وظل جند الريف بقية النهار يرصصون خط دفاعهم الجديد في المركز المنتزع من قبضة الاسبان والمدافع البعيدة المدى تحميهم من أعلى الهضاب .. فلم يكد ينتصف الليل

حتى كان القوم على اهبة استئناف القتال .. واهل الجبل مقلون حتى في النوم يكتفون بالاغفاءة القصيرة لا سيما اذا كانت أعصابهم متشنجة .. على ان الجفون تتفتح تحت تأثير السهاد عند مداهمة الاخطار .. وكان جيش الريف الذي لم يكن عدده يبلغ الالف يعلم أن الساعة الحاسمة قد دقت !

نزلت بضع مئات من الفرسان والمشاة الى الخط المحرر بينما بقيت قوات الرديف تنتظر مصير الصدمة الاولى للانقضاض على العدو بدورها اذا اقتضى الحال .. وكان ابن عبد الكريم في طليعة جيشه يحرض ويحث على الاستبسال والنساء قد اختلطن بالمجاهدين يحملنهم على الاستماتة الى النصر .. وكانت الحماسة قد بلغت مداها وتحركت في القلوب نخوة العروبة وشهامة الايمان .!

.. وابت هذه الفلول ان تهجم هجمتها الفاصلة قبل أداء صلاة الفجر فاصطف المؤمنون وارتجت الارض بدعائهم وانطلقت الألسنة بالتسبيح ثم انتشر القوم الى مراكزهم ينتظرون صفير الكر .. وتقدم المجاهد المستبسل وشقيقه على رأس الطليعة يحوطهما الرماة نحو انوال حيث تراجع العدو في اضطراب .. وما كادوا يصلون الى هذه الناحية حتى صدر الامر باطلاق النار فانثالت القذائف على مراكز الاسبان واستمر الصراع الناري عن بعد حتى اضطر العدو آخر الامر الى اخلاء انوال فتقدم ابن عبد الكريم في طريق قد تكدست بين أحجارها واعشابها مئات الجثث من قتلى وجرحى الاسبان الذين كانوا يتراجعون في غير انتظام بعد أن اخلوا نحو المائة مركز وقد حسبوا أن الريف انحدر بقضه وقضيضه لدك جيوشهم .. وكان بعض الجند يجهزون على الجرحى فلوح البطل بمسدسه مهددا بالموت من رام قتل جريح من الاسبان .. وكان الجو مكفهرا وركام الضباب يتلبد من جراء

هذه الاعمدة من دخان الرصاص الذي كاد الطقس يختنق بالتفافها.. واختلطت انات الجرحى بصرخات الاسرى وصهايل الخيل الجامحة وزئير السيارات المسلوبة وقعقعة المدافع التي ظل الرماة يجرونها على البغال وهي تقذف بحممها الملتهب .. واخيرا عم السكون وبددت الشمس سحب الدخان فانجابت الارض وكانها ميدان الحشر قد دمي اديمها وانتثرت في جنباتها المدافع والبنادق والسيارات وعربات الادوية والذخائر .. وكف القوم عن مطاردة الجيش المنهزم الذي كان نصفه قد لاذ بالفرار بينما تضرجت الارض بدماء خمسة عشر الف قتيل كان بينهم الجنرال سلفستر وكبار ضباطه .. واصدر القائد امره بنقل الغنائم والاسرى الى انوال واجدير ..

*

ولم يكد ينبلج فجر الغد حتى كانت مدينة اجدير قد غصت باكوام الاسلاب والذخائر المنتزعة من الاعداء .. وتقدم بطل الريف مع شقيقه نحو غرفة لا تتجاوز مساحتها ٢٠ قدما مربعة ولا يعدو علو سقفها ستة اقدام .. وكانت هذه الغرفة هي المقر الذي اختاره البطل وشقيقه من قبل لقيادة الجيش وقد علقت على الجدران الوطيئة خريطتان رسمت عليهما ناحية الريف .. ومدت فوق البساط كراسي ومنضدة تكدست عليها كومة من الرسائل والصحف .. وكان وجه البطل يتهلل بشرا ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق العزم فخاطب اركان حربه قائلا : « قد ربحنا الآن نصف المعركة فعلينا ان نستعد للنصف الثاني .. غير اننا سنسمح لانفسنا في هذا اليوم الاغر بالاستجمام .. وننتهز هذه الفرصة لنحتفل بزفاف بنت الريف البارة بابن الريف البار .! ثم نظر الى